بين يدى الكتاب

دكتور محمد سليم العوّا

الرئيس الإيراني سيد محمد خاتمي من أكثر الشخصيات الإسلامية المعاصرة إثارة للجدل، وجذبا للاهتمام، وشغلا للناس.

وقد كُتبَ - ولا يزال يُكْتَب - كثير من التحليلات حول نجاحه السياسي الذي فاق معظم التوقعات، وحول صموده في المواجهة المستمرة منذ نجاحه في انتخابات الرئاسة الإيرانية، بل منذ ترشيحه لها، قبل عامين ونيف، حتى الآن. وهي مواجهة لا تتم بينه وبين أعداء الثورة أو خصوم الفكرة، وإنما تتم بينه ومعه جيل كامل يؤمن بمشروعه ويتحمس له، من جهة، وبين شيوخ الطريق ورموز الانتفاضة الإسلامية في إيران، الذين يقودون ما يطلق عليه - مع كثير من التعميم - «التيار المحافظ». بينما يقود خاتمي ما يطلق عليه - بالتعميم نفسه - «التيار الإصلاحي».

والمنافسة التي تجري بين التيارين - أو سمِّها، إن شئت، المواجهة - ليست على الموقع السياسي، ولا على الحقائب الوزارية، ولا على المناصب التنفيذية، ولكنها أساسا مواجهة أو منافسة، فكرية وثقافية، وإن شئت سميتها: أصولية وفقهية، وهما كلمتان يتجنبهما خاتمي بصورة أظنها متعمدة في خطابه كله.

خاتمي يمثل الفكر الوسطي المنفتح الذي يرى التعاليم الإسلامية في صورتها الحقيقية: رحمة ونعمة ورفقا بالناس، وتحريرا لهم من القيود، وإطلاقا لطاقاتهم نحو الابتكار والإبداع، حتى في المجالات التي يرى آخرون أنها قد انتهى فيها الكلام إلى قول فصل لا راد له ولا معقب عليه.

وأنت ترى مصداق ذلك في فصول هذا الكتاب كلها.

والذين ينافسون خاتمي يمثلون مزيجًا - يتقارب حينا ويتنافر أحيانا - من الأفكار التقليدية التي ترى أن الإسلام هو ما يمثله فكر عدد - يقل ويكثر حسب الموضوعات وحسب رأي المتحدث - من المجتهدين القدامى.. الذين قالوا كل ما ينبغي قوله.. ولم يبق للأجيال اللاحقة لهم إلا أن تقلّدهم.. وتتبع ما انتهى إليه اجتهادهم، للمحافظة على الصورة الإسلامية كما رسمتها مؤلفاتهم الذائعة الصيت وفتاواهم المأثورة.

وهو موقف نقيض للموقف الذي يمثله السيد محمد خاتمي، ويتابعه فيه أو يوافقه عليه الملايين من أبناء إيران الذين صوتوا له في انتخابات الرئاسة، واحتفلوا منذ يومين بالذكرى الثانية لنجاحه فيها.

ومثل هذه المنافسة بين الموقفين الإسلاميين كانت دائما قائمة فى الساحة الإسلامية الإيرانية، أو الشيعية بوجه عام، لأن المذهب الشيعي الإمامي تميز عن كثير من المذاهب الإسلامية الأخرى - لا سيما السنية - بأنه لا يعرف مسألة إغلاق باب الاجتهاد، ولكنه يوجب على غير المجتهدين - وهم الأكثرية الساحقة - تقليد مجتهد ممن تعرف لهم هذه المكانة.

ولكن المنافسة كانت - قبل خاتمي - محصورة داخل دوائر الحوزة - المؤسسة العلمية الشيعية - تتم في صورة محاضرات يستمع إليها طلاب العلم من ذوي الآراء المتباينة - من المجتهدين - ثم يصنع هذا التباين في الرأي مجالا رحبا للمناقشة والجدال وتبادل الرسائل والكتب...

ولكنها لا تؤثر تأثيرا مباشرا، على الحياة بوجه عام، والحياة السياسية بوجه خاص.

ثم جاء خاتمي...

وصوت له أكثر من عشرين مليونا، من الناخبين الإيرانيين، على أساس برنامج سياسي وثقافي، معلن ومُرَوَّج له، يختار الحرية بديلا عن القيود، والانفتاح على العالم بديلا عن إغلاق الأبواب في وجه الآخرين، والحوار مع الخصم بديلا عن التصادم والصراع... إلى آخر قائمة الأفكار البناءة، شديدة الجاذبية، التي تملأ صفحات الكتاب الذي بين يدي القارئ.

وكانت نتائج نجاح خاتمي لا تحصى، ورأى كثيرون أن مضي سنتين على رئاسته كان مؤشرا صادقًا على دخول إيران مرحلة من مراحل الاستقرار السياسي الذي يقويه ويغذيه التنوع الفكري والثقافي المعلن على الكافة والمقبول من الجميع. وكان هذا هو أهم حصاد يمكن أن يرصد ويتابع على الساحة الإيرانية الداخلية.

وآتى موقف خاتمي أكله - أيضا - على الساحة العالمية، متمثلا في التطور البنّاء الذي يراه الجميع في علاقات إيران بالدول العربية والإسلامية وبالعالم الغربي بتنوعاته وتعارض المصالح والمواقف فيه.

والكتاب الذي يراه القارئ اليوم هو أحد المفاتيح المهمة لفهم الموقف الفكري لهذا الرئيس الإيراني الذي استطاع في سنتين اثنتين أن يغير كثيراً من الواقع المستقر منذ عشرين سنة، ونجح في هذه المدة القصيرة في أن يتحول بمشاعر الترقب والحذر - لدى الآخرين - إلى مشاعر صداقة إيجابية فاعلة، وبمواقف العداء الأعمى - عند غيرهم - إلى مواقف عاقلة تحسب المكاسب والخسائر وتوازن بينها.

وليس يحسب على خاتمي - في معيار التقويم الصحيح لسياساته وآرائه - أنه فجرَّ علانية ذلك الصراع الداخلي، ونقله من الحلقات العلمية المغلقة، في الحوزة، إلى الشوارع والمصانع والجامعات والمنابر - وما أهمها في إيران - والصحف السيارة في طول البلاد وعرضها. بل لعل هذا الأثر من آثار مواقفه الفكرية ونشاطه السياسي أن يحسب له أكثر من سواه... فلم يكن ممكنا أن تخرج إيران من إطار تقديس الثوار، والآباء الفكريين للثورة، إلى رحابة فضاء التفكير الحر.. والعمل السياسي المبدع.. إلا على يد واحد ممن جمعوا بين الولاء التام للإسلام: عقيدة وشريعة وسلوكا ثوريًا، وبين الإدراك الواعي لمتطلبات الأجيال والأيام بعد عشرين عامًا على نجاح الثورة وسيطرة رجالها على مقاليد الأمور كلها في البلاد.

* * *

لقد كان صنيع الخميني إبداعًا فقهيًا تحولت به فكرة «ولاية الفقيه» من فكرة محدودة الأثر تعمل في مجالات الأسرة وفقهها.. والأوقاف وإدارتها.. إلى فكرة سياسية محركة للقوى والطاقات الكامنة.. التي استطاعت القضاء على الأسرة البهلوية.. وإقامة الجمهورية الإسلامية في إيران. وجاء صنيع خاتمي ليقدم إلى الناس طريقة مقبولة للجمع بين قداسة الدين نفسه، وبشرية التدين الذي نمارسه.. أو ليدعو الناس إلى التمييز بين جوهر الدين الذي لا يتغير ولا يتبدل لأنه وحي إلهي.. وبين تصورات الإنسان له وهي تصورات بشرية، نسبية، محدودة يدركها التغير، وتقبل الخطأ والصواب.

وكفى بهذا إنجازا فكريًا - لا في النطاق الشيعي وحده - بل على المستوى الإسلامي كله.